أ/أحلام شمري

المؤسسة: جامعة قسنطينة -1-

البريد الإلكتروني:zahratamel65@gmail.com

المداخلة بعنوان: المتخيل الصحراوي في رواية" مملكة زيوان" لصديق حاج أحمد –أنموذجا

الملخص:

ألهمت الصحراء الكتاب وحركت قرائحهم، فجادت بنصوص لمكان ظل ردحا من الزمن غامضا ومهمشا، وتعددت الخطابات المنتجة حوله. وانفتحت على الأجناس الأدبية المختلفة ما بين رواية وقصة ورحلة وأساطير، تبلورت السرود لتشكل ما يعرف بأدب الصحراء.

يعتبر الروائي الجزائري الصديق حاج أحمد من الكتاب الروائيين الذين اشتغلوا على فضاء الصحراء في مجال الأدب والرواية وبذلك سار على خطى الروائي الليبي إبراهيم الكوني، فقد توّج الزيواني لحد الآن بجملة من الكتب والأعمال الروائية التي تناول الصحراء وجغرافيتها تشكلاتها الثقافية والتراثية مثل كامراد رفيق الحيف و الضياع، مملكة زيوان.

تسعى هذه الورقة البحثية إلى تسليط الضوء على ثيمة الصحراء و تجلياتها في رواية/ مملكة زيوان" لصديق حاج أحمد، فهو في روايته يكتب عن امتداد هويته و ينطلق من حكاية مهد طفولته و ذاكرة بلاد، من كون الصحراء المليئة بعوالم الميثولوجيا و هواجس الصمت المريب و الفراغ الموحش.

الكلمات المفتاحية: الصحراء–السرد الروائي–أدب الصحراء–الرواية الجزائرية. المتخيل الصحراوي.

Abstract:

The desert inspired writers and moved their minds, generating texts for a place that remained obscure and marginalized for a period of time, and many discourses were produced around it. It opened up to different literary genres, including novels, stories, journeys, and myths. The narratives crystallized to form what is known as desert literature.

The Algerian novelist Al-Siddiq Haj Ahmed is considered one of the novelists who worked on the desert space in the field of literature and novels, and thus he

followed in the footsteps of the Libyan novelist Ibrahim Al-Koni. Al-Ziwani has so far been crowned with a number of books and works of fiction that deal with the desert, its geography, and its cultural and heritage formations, such as Kamrad Rafiq Al-Hif and Al-Diya. , Kingdom of Ziwan.

This research paper seeks to shed light on the theme of the desert and its manifestations in the novel "The Kingdom of Ziwan" by Siddiq Haj Ahmed. In his novel, he writes about the extension of his identity and starts from the story of his childhood cradle and the memory of a country, from the fact that the desert is filled with worlds of mythology and premonitions of suspicious silence and The lonely void.

Keywords: desert – novelistic narrative – desert literature – Algerian novel. Desert imagination.

تمهيد:

ألهمت الصحراء الكتاب والمبدعين، وحركت قرائحهم فجادت بنصوص لمكان ظل ردحا من الزمن غامضا ومهمشا، وتعددت الخطابات المنتجَة حوله، وانفتحت على الأجناس الأدبية المختلفة، ما بين رواية، وقصة، ورحلة، وأساطير عجائبية، ومذكرات شخصية، وسير ذاتية، وآداب جغرافية، وحكايات تاريخية. تبلورت تلك السرود لتشكل ما يعرف ب" أدب الصحراء."

وتحولت عوالم الصحراء المفتوحة على الأسطورة، والخرافة، والتيه، والصمت، والغيب، إلى علامات ناطقة بزخم المعنى وغواية الحكاية المصبوبة في تصاميم النصوص وخرائط السرود، وظهرت أصوات سارده في الجزائر وخارجها بدأت تتكئ على الصحراء إلهاما وفضاء ورؤية جمالية، ونصوصهم ما زالت تنتظر المتلقي

العليم بالمداخل الأبستمولوجيا والمناهج النقدية للبحث والتحليل وإعادة القراءة، ومواصلة تفكيك تلك الآثار لكشف المضمرات والمؤثثات السردية وتمظهرات الخطاب والبنى الثقافية والاجتماعية.

والصحراء تجاوزت، في رأينا، تلك الصورة النمطية التي تحيلها على التيه والضياع ولامعنى والخوف والموت فقط، لتجعل منها قبلة لصناعة الحياة والمعنى والاستشراف من جهة أخرى، لأن الصحراء فضاءات مختلفة، منها القاحلة والمأهولة، والقارة والمتحولة، وموضع الخوف وموطن الأمن، وذاكرة الماضي وعدة المستقبل، وهو ما يعطيها أدبيا الثراء والتنوع ومنحة الاكتشاف ولذة النص ودهشة المتلقي..

لقد اهتم الروائيون الجزائريون وغيرهم على اختلاف توجّهاتهم بمتخيل الصّحراء، ووظّفوا جمالياته في أجساد نصوصهم وتمفصلات سرودهم بحثا عن التميز والتفرد والجمال، بدءا من عتبة العنوان، مرورا بالشخصيات والأحداث والتوظيف المشهدي، وصولا إلى التيمة واللغة والذاكرة والمكان والإنسان.حيث لم تغب جمالية الصحراء عن التوظيف الفني في السرد الجزائري المكتوب بالفرنسية، فقد حضرت منذ تأسيسها في الخمسينيات من القرن الماضي، ولعل أول من ضمنها عوالمه الحكائية الروائي مالك حداد عندما كتب روايته "سأهبك غزالة"، وحديثه عن المرأة التارقية ابنة الطاسيلي، ومولاي ابن ورقلة الأمير المفلس الذي تاه في الصحراء بحثا عن غزالة لم يلحقها فمات فداء الحب. كما وظف الروائي مولود معمري الصحراء، في جسد نصه العبور بمسحة انتربولوجية وهو يتحدث عن هوية منسية وتراث أمازيغي مدفون في رمال الصحراء وجبال الهقار، ومعمى عليه في الحضور نتيجة سيطرة الأحادية وعقلية الوحدة في سيادة اللون الواحد. ومع نفس النسق ذهب الروائي الطاهر جاووت في روايته "اختراع الصحراء" سنة 1987، التي تحدث فيها عن أزمة الهوية وتجاذباتها وعلاقتها بالتحولات السياسية وظاهرة الصحوة الإسلامية.

برزت في سنة 1993 الروائية مليكة مُقدم بروايتها "الممنوعة" لتقدم رؤية عكسية عن الصحراء المهادنة، وتقلب أحجارها لتكشف العقارب والحيات اللادغة التي لا تبقى فقط في الطبيعة. وشهدت سنة

2007 إصدار الروائي عز الدين ميهوبي روايته "اعترافات أسكرام" التي تدخل ضمن السرد اللاحق، ليتحدث عن مدينة تمنراست بشكل تنبؤي استشرافي لآفاق 2040 وما سيطرأ في المدينة المعولمة من تحولات اقتصادية واجتماعية وفنية وإعلامية".

بعد التفات كتاب الشمال للصحراء، وإدراجها ضمن أعمالهم الروائية، جاء دور كتاب الجنوب أنفسهم، وبخصوص هذه المسألة يرى كروم أن العشرية الثانية من هذا القرن شهدت تفطن أبناء الصحراء لوعي الكتابة عن مكان يعرفونه أكثر من غيرهم، فكتبوا روايات وأعمالا تجسد الهوس بالمكان ومكوناته السردية، وقال: "ممن كتب الروائي الحاج أحمد الصديق الزيواني في عملين روائيين هما "مملكة الزيوان"، و"كاماراد"، وتحدث في الأولى عن ذاكرة الصبي وسيرة الشاب اليافع لتحولات توالت اجتماعيا وثقافيا واقتصاديا والوضع القهري للمرأة. وفي الثانية تناول قضية الهجرة السرية لأبناء صحراء إفريقيا وعبورهم لصحراء الجزائر بحثا عن لقمة العيش، ونشرت الروائية جميلة طلباوي روايتين هما "الخابية"، و"وادي الحناء" تحدثت فيهما عن ذاكرة المكان الصحراوي وتاريخه وحكاياه بمسحة من الحنين والخوف من المسوخ وعاديات الزمن وكواسر الثقافات الزاحفة على القيم والرموز والعلامات والهوية المكانية.

يعتبر الروائي الجزائري الصديق حاج أحمد من الكتاب الروائيين الذين اشتغلوا على فضاء الصحراء في مجال الأدب والرواية وبذلك سار على خطى الروائي الليبي إبراهيم الكوني، فقد توّج الزيواني لحد الآن بجملة من الكتب والأعمال الروائية التي تناول الصحراء وجغرافيتها تشكلاتها الثقافية والتراثية مثل كامراد رفيق الحيف والضياع، مملكة زيوان.

تسعى هذه الورقة البحثية إلى تسليط الضوء على ثيمة الصحراء و تجلياتها في رواية/ مملكة زيوان" لصديق حاج أحمد، فهو في روايته يكتب عن امتداد هويته و ينطلق من حكاية مهد طفولته و ذاكرة بلاد، من كون الصحراء المليئة بعوالم الميثولوجيا و هواجس الصمت المريب و الفراغ الموحش.

وكان بحثنا موسوما بالمتخيل الصحراوي في رواية" مملكة الزيوان "وقد حاولنا من خلاله تقديم قراءة متواضعة تتناول الحديث عن صورة المكان الصحراوي في ظل الرواية الجزائرية؟

فكان هذا البحث إجابة عن الإشكالية التالية :كيف صوّر لنا الكاتب" الصديق حاج أحمد "صورة الصحراء في روايته وبأي عين ومن أي زاوية نظر إلى هذه الصحراء؟

ما هي القيم الجمالية والإنسانية التي أضافتها عين الروائي إلى الصحراء؟ وكيف تم تقديم هذه الصورة فنيا وجماليا؟

وهل فعلا استطاع من خلال هذه الصورة أن يفصح لنا عن جوانب خفية تتعلق بالصحراء، وعن أسرارها المخبأة بين طيّات كثبانها وحبّات رملها؟ وما هي الدلالات العميقة المرتبطة بصورة الصحراء الماثلة في رواية مملكة الزيوان؟

هل سيحظى الفضاء الصحراوي بشي من التميز والتفرد في كتابات أبناء الجنوب، أم أن المهمة ستبقى موكلة لأبناء الشمال، كلما ارتحلوا إليها طواعية، أو دفعت بهم النوائب والمحن لمعاشرة الصحراء حتى يكتبوا عنها؟

أولا: حضور الصحراء في الرواية الجزائرية:

كان الفضاء المديني مستحوذا على الرواية؛ نظرا للحياة الضاجة في المدينة والتي تخلق ذلك التشابك والصراع في أحداث الرواية وعزوف الروائيين عن الفضاء الصحراوي، وذلك لأن الصحراء فضاء يمتاز بالفارغ والعزلة، فقد كسرت الرواية الجزائرية هذا النمط باستحضار فضاء الصحراء في الرواية.

"إن الصحراء بما هو معروف أرض قاسية بمناخها، قاحلة بطبيعتها، فقيرة بإنتاجه الزراعي .... فالصحراء جزء من تراثنا الطبيعي، وإذا كانت الصحراء فقيرة في إنتاجها الزراعي والمادي، فإنه ينظر إليها على أنها غنية بثرائها الثقافي وبإنتاجها الرمزي، فإذا الصحراء قاحلة جرداء قد كانت دوما أوسع فضاء للتأمل والتفكير، وكانت دوما أفضل موطن لنشأة للأساطير و الأشعار والحكايات، فمنذ القدم كانت الصحراء

صور تخيلية، فهي في النصوص الدينية فضاء للخلوة والعزلة ...أي أنها فضاء ذهني وميتافيزيقي مؤهل لاستقبال التعاليم الإلهية"[1]

فهذا الجو الذي يسود الصحراء من سكينة وهدوء، جعلها مصدر إلهام، وموطنا للتخييل الروائي.

" لقد اتخذت الرواية لنفسها، فضاء الصحراء مكانا منفتحا على الطبيعة، لتأطير أحداثها بفرض الزمان المتحكم فيها، حيث شملت تقريبا كل أحداث الرواية نظرا لولادة الشخصية بها وترعرعها داخل فضاء مكاني، شاع بعاداته وتقاليده و أفكاره الغريبة، كما تمثل الصحراء بمساحتها الشاسعة و عدم وجود العمران على أرضها مكانا مفتوحا"[2]

استثمر بعض الروائيين الجزائريين الفضاء الصحراوي في بناء أعمالهم الروائية، وقد أصبح هذا الفضاء ضاجا بالحياة من منطلق أن معطى السكون والفراغ من رؤية فلسفية تخيلية ينتج حياة تدعو المتلقي إلى سؤال الذات وما يحيط بها من العالم الخارجي.

فرض عالم صحراء نفسه وبقوة كبيرة على النص الروائي الجزائري المعاصر بحكم جاذبيته وروائع طقوسه وعاداته وتقاليده الساحرة الآسرة، وبحثا من الروائيين الجزائريين عن فرص جديدة للتجريب، وممارسة مغامرة الكتابة بنوع من الممارسة العشقية مستعينا بقاموس صوفي ثري بمصطلحاته الموغلة في الوله والوجد والفناء وقد استطاعت بعض النصوص الروائية الجزائرية أن تكشف لنا عن عوالم رحبة للعالم الصحراوي المترامي الأطراف، لأن هذا العبور هو الطريق الأول نحو العالمية.

وقد اهتمت بعض الروايات الجزائرية على قلتها بالعالم الصحراوي وحاولت أن تبرز بعض مكوناته الجمالية من رمال ونباتات وحيوانات، ومحور هذا العالم الإنسان الذي استوطن هذا المكان منذ أقدم العصور وتفاعل معه، وترك بصمات واضحة تدل على معاناته الطويلة وتكيفه مع خصوصيات الصحراء وتفريعا لجمالية العالم الصحراوي.

---

[1]- حسين المودن، الرواية والتحليل النصي قراءات من منظور التحليل النصي، ط1، 9002 . ، دار الأمان ، الرباط، ص.19

[2]-نبهان حسون السعدون، شعرية المكان في القصة القصيرة جدا ، دار تموز ، سوريا،ط1، 2012، دمشق، ص65.

ونقصد هنا الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية، فقد كانت سباقة في الظهور من الرواية الجزائرية باللغة العربية لأسباب عديدة معروفة لدى الباحثين والنقاد والدارسين للرواية الجزائرية، أهمها ظروف الاحتلال الذي تعرضت له الجزائر، وما رافقه من سياسة التجهيل والعدوان والتضييق على التعليم وعلى الإبداع والنشر والسفر والبعثات وغيرها، فكان أول إنتاج روائي في الجزائر يشتغل بفضاء الصحراء، رواية "سأهديك غزالة "لمالك حداد "فتحاول أن تؤصل للتاريخ البدوي المليء بالفحولة الشامخ بأنفته، العبق بفصاحته، عن طريق توظيف فضاء الصحراء بشكل سحري جمالي، "بكل ما يحمله من أخلاق ومكارم وفروسية، مما ساعد الروائي على رسم صور أكثر عمقا في المخيال الأدبي تعزيزا وترسيخا لمكانة الجنوب وعاداته وثقافته، خاصة عندما يجسد صورة الرجل الأزرق والمرأة التارقية مع توظيف أسماء مثل (ياميناتا)، (مولاي)، مع ربط هذا السرد بفرنسا / باريس وما تحتوي عليه من مظاهر التفوق والتمدن والتحضر لدى الآخر، فهذا النص يكشف مدى ارتباط الكاتب بالوطن، وبالأرض"[3]

فقد أصبحت محل اهتمام عند الروائيين في معظم رواياتهم أمثال حبيب السائح "الذي كتب عنها رواية"تلك المحبة و"ذاك الحنين."فالصحراء في رواية "تلك المحبة "هّي رّمز حيّ فهي من أخبرت السائح عن نفسها فقالت" لا أعرف لعمري تقويما في هذا الزمن ، فقد أكون ولدت مع دفقة الماء الأولى التي انساحت في هذه الأرض البعيدة"[4]

فحكاية السائح مع الصحراء بدأت مع أحداث روايات تلك المحبة وذاك الحنين وزهوة ويفصح الكاتب عن حقيقة الصحراء على لسان الطالب باحيدا متحدثا لجو ليست الفتاةّ الفرنسية "هكذا الصحراء بقدر ما تبدو مخيفة معطية الروح أمانة والقلب سكينة فهي صارمة في الخيارات الثنائية، أهل ووحشة، برد وقر

---

[3]–وليد عثماني :شعرية الفضاء وغواية الصحراء في الرواية الجزائرية رواية سأهديك غزالة لمالك حداد–أنموذجا–، مجلة المخبر، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، جامعة بسكرة، الجزائر، العدد العاشر، 2014 م، ص241 .

[4]– حسين عّمارة :الفضاء الأسطوري وتجلياته) في أعمال الحبيب السايح الروائية)أّطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه في الأدب العربي، جامعة وّرقلة، تخصص أدب حديث ومعاصر، 2017–2018، ص207.

عصف وصمت، الله والتوه، لا شيء بينهما، الحقيقة الضلالة، لذا كانت من أقسى الطبائع في الانتقاء، لا تنسى أن تخبرك دون إشعار مسبق، فإن فشلت هزمتك ."[5]

إنها تعبيرات ومعاني تصف حقيقة عوالم الصحراء من رجل خبير بخباياها، فالصحراء مكان ليس كغيره من الأمكنة إن اختيارها للإنسان صارم حد القساوة، فهي تخيره دوما ما بين النقيضين اللذين لا ثالث لّهما التحدي أو الموت، وحين يعلن الإنسان فشله أمامها تعلن هي انتصارها.و كذلك رواية" تيميمون " لرشيد بوجدرة "فهي عبارة عن رحلة تخيلية في عمق الصحراء الجزائرية حيث الأمن و الأمان المفقود بفعل لغة الموت و لقد اتبع رشيد بوجدرة من خلال منطقة تّيميمون روعة الصحراء وجمالهاّ و شساعتها وشتى تربتها وبهاءّ نخيلها كما امتازت أيضا بالجفاف وندرة الأمطار و بالتالي نجدها لا تضم سوى القليل من الحيوانات و النباتات. ويتجسد ذلك في الرواية فيقول "الصحراء التي تنخر جسمي وتجرح بشرتي و تحرق جفوتي و تلهب صدري من فرط جفاف الجو."[6]و يقول أيضا:" في الصحراء تعلمت اللوعة و الوجع و فيها كنت أموت بردا قساوة"[7]

يصف لنا رشيد بوجدرة مظاهر الصحراء التي تشعره بالراحة والهدوء والسكينة وذلك بالنظر إلى مناظرها المختلفة من كثبانها الرملية وقوافل الجمال والنجوم التي تتلألأ في سمائها. مالك حداد عندما كتب روايته "سأهبك غزالة"، وحديثه عن المرأة التارقية ابنة الطاسيلي، ومولاي ابن ورقلة الأمير المفلس الذي تاه في الصحراء بحثا عن غزالة لم يلحقها فمات فداء الحب. كما وظف الروائي مولود معمري الصحراء، في جسد نصه العبور بمسحة انتربولوجية وهو يتحدث عن هوية منسية وتراث أمازيغي مدفون في رمال الصحراء وجبال الهقار، ومعمى عليه في الحضور نتيجة سيطرة الأحادية وعقلية الوحدة في سيادة اللون

---

[5]–مرجع نفسه، نفس الصفحة.

[6]–رشيد بّوجدرة :تيميمون، المؤسسة الوطنية للاتصال و النشر والإشهار دالي إبراهيم، الجزائر ،ط1، 1994،ص40.

[7]–مصدر نفسه، ص33.

الواحد. ومع نفس النسق ذهب الروائي الطاهر جاووت في روايته "اختراع الصحراء" سنة 1987، التي تحدث فيها عن أزمة الهوية وتجاذباتها وعلاقتها بالتحولات السياسية وظاهرة الصحوة الإسلامية.

برزت في سنة 1993 الروائية مليكة مُقدم بروايتها "الممنوعة" لتقدم رؤية عكسية عن الصحراء المهادنة، وتقلب أحجارها لتكشف العقارب والحيات اللادغة التي لا تبقى فقط في الطبيعة. وشهدت سنة 2007 إصدار الروائي عز الدين ميهوبي روايته "اعترافات أسكرام" التي تدخل ضمن السرد اللاحق، ليتحدث عن مدينة تمنراست بشكل تنبؤي استشرافي لآفاق 2040 وما سيطرأ في المدينة المعولمة من تحولات اقتصادية واجتماعية وفنية وإعلامية".

بعد التفات كتاب الشمال للصحراء، وإدراجها ضمن أعمالهم الروائية، جاء دور كتاب الجنوب أنفسهم، وبخصوص هذه المسألة يرى كروم أن العشرية الثانية من هذا القرن شهدت تفطن أبناء الصحراء لوعي الكتابة عن مكان يعرفونه أكثر من غيرهم، فكتبوا روايات وأعمالا تجسد الهوس بالمكان ومكوناته السردية، وقال: "ممن كتب الروائي الحاج أحمد الصديق الزيواني في عملين روائيين هما "مملكة الزيوان"، و"كاماراد"، وتحدث في الأولى عن ذاكرة الصبي وسيرة الشاب اليافع لتحولات توالت اجتماعيا وثقافيا واقتصاديا والوضع القهري للمرأة. وفي الثانية تناول قضية الهجرة السرية لأبناء صحراء إفريقيا وعبورهم لصحراء الجزائر بحثا عن لقمة العيش، ونشرت الروائية جميلة طلباوي روايتين هما "الخابية"، و"وادي الحناء" تحدثت فيهما عن ذاكرة المكان الصحراوي وتاريخه وحكاياه بمسحة من الحنين والخوف من المسوخ وعاديات الزمن وكواسر الثقافات الزاحفة على القيم والرموز والعلامات والهوية المكانية.

ثانيا: المتخيل الصحراوي في رواية "مملكة زيوان"

تعد رواية مملكة الزيوان للروائي حاج أحمد الصديق، أول إبداع سردي في جنس الرواية بولاية أدرار حيث استثمرت الرواية في الفضاء الصحراوي للمنطقة، وغاصت في ذاكرة المكان التواتي، واستلهمت من التراث المادي واللامادي للصحراء، ووظفت التحولات الاجتماعية والثقافية والسياسية لها، ووزعتها على برامج

سردية في المتن الحكائي، واتكأت أكثر على الملفوظ اللساني المحلي والخطاب اللهجي المتداول والمنسي منه واستدعته ووظفته بجمالية متفردة وجديدة في السرد الجزائري المعاصر.

نستطيع أن نقول إن مملكة الزيوان مثلت ذخيرة للذاكرة الجمعية بولاية أدرار واختزلت مفاصل مهمة من تاريخ أقاليم الولاية الثلاث ولاسيما خلال فترة الستينيات والسبعينيات، وتناولت في ثناياها تحولات المجتمع الأدراري من الطين إلى الإسمنت ومن زمن الفقارة إلى زمن الاستصلاح الزراعي عن طريق الرش المحوري متمثلة الأحداث في حبكة تجسد فضاء الصحراء على مستوى العادات والتقاليد واللغات والشخوص لتصنع منها حكاية مصبوعة بألوان الطبيعة الصحراوية.

يمكن للباحث أن يسجل ذلك التوجه الواضح في السرد الجزائري نحو اكتشاف عوالم الصحراء، وكسر سلطة المركز المتمثل في المدينة وعوالمها المعقدة، والمملكة الزيواني تسلك هذا التوجه وتصور فضاء الصحراء بأسراره وهوامشه ومكوناته وخفاياه الكامنة في قصبات القصور وجنات البسطاء وقلوب الطيبين من الساكنة، ليكون ذلك فضاء آخر للبوح والقص بدهشة وتشويق يفتح على المنسي والمجهول، ليرسم الإثارة والتشويق و يكسر أفق التوقع المفتوح على مستوى اللغة والرؤى والتصور.بوصف مملكة الزيوان رواية ريفية في زمن أحداثها ومكانها ولغتها وشخوصها، فما هي الفضاءات الصحراوية المتجلية في الرواية؟

1 – الصحراء على مستوى العنوان:

للعنوان أهمية كبيرة في تشكيل الخطاب الروائي فهو الخطوة الأساسية التي تجذب القارئ لقراءة النص أو التصدي له، "يعدّ العنوان ركنا أساسيا في العمل الأدبي ذلك أ نه يشكل المفتاح الإجرائي الذي تتجمع

فيه الأنساق المكونة للعمل الإبداعي ا لتي تصبّ في البؤرة ذات الحالة التكثيفية لمجريات الحدث داخل البنية النصية"[8]

كما تطرح دلالة العنوان في أذهاننا مجموعة من الإشكالات، هل العنوان مفتاح للرواية؟

"حيث تبرز عتبات النص جانبا أساسيا من العناصر المؤطرة لبناء الحكاية، وبعض طرائق تنظيمها وتحققها التخييلي، كما أ نها أساس كل قاعدة تواصلية تمكن النص من الانفتاح على أبعاد دلالية تعني التركيب العام للحكاية وأشكال كتابتها"[9]

لقد عمد السارد في نص مملكة الزيوان على اختيار الألفاظ والعبارات الدالة على خروج النص من عمق الصحراء الجزائرية ومدى تعلقه بالصحراء رغم صعابها وصعوبة تضاريسها، حيث أهدى السارد العمل الإبداعي لكل الذين ظلمهم موقعهم الجغرافي وذلك بقوله: " إلى كل الذين ظلمتهم الجغرافيا بتضاريسها العبثية المقرفة، لكنهم آمنوا بنبوة الرمل"[10]

فرغم وعرة المناطق الصحراوية إلا أن الانسان الصحراوي حاول التأقلم مع البيئة التي ولد فيها وكافح من أجل تحقيق طموحاته وأهدافه الخاصة به، والتعبير بهذا الشكل من طرف السارد في الإهداء ما هو إلا خطاب افتتاحي يدل على وعاء معرفي وايديولوجي تختزن رؤية المؤلف وموقفه من العا لم وتتيح للكاتب العديد من إمكانات التعبير والتعليق والشر"[11]

أما الروائي" الصديق حاج أحمد "فقد أخذنا إلى" مملكة الزيوان2013م والتي كانت بوابة يلج من خلالها القارئ إلى تفاصيل حياة الإنسان التواتي في القصور، وعلاقاته القبلية، ويستقي الروائي عناصر الحكي المتخيل من العناصر السائدة الدارجة في منطقة توات، حيث يجمع بين الواقعي والعجائبي خاصة في

---

[8]- سناء شعلان، فضاءات التخييل مقاربات في التشكيل والرؤى وال دلالة في إبداع، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، ط2012، ص11

[9]- عبد الفتاح الجحمري :عتبات النص، البنية والدلالة، منشو رات الرابطة، الدار البيضاء، ط1 ، المغرب1991 ، ص11

[10]-الحاج صديق، مملكة زيوان، ط2015، دار فضاءات، الأردن.

[11]-عبد المالك أشهمون، خطاب المقدمات في الرواية العربية، مجلة عا لم الفكر، ط1977، ص33.

عرض عادات وتقاليد أهل القصر ومعتقداتهم" لهذا احتفت مملكة الزيوان بالمتخيل الصحراوي في صورته العجائبية والخارقة خاصة بعيدا عن الواقعية التقريرية المباشرة مشكلة واقعية جمالية بدأها الحاج أحمد الصديق منذ الصفحات الأولى مع متخيل الفضاء"[12]

إن نص مملكة الزيوان غني بالألفاظ اللغوية الدالة على منبع الرواية وخروجها من رحم الصحراء، وذلك بتوظيف السارد لمجموعة الألفاظ الدالة على ذلك ومن نماذج ذلك الصفحة التي تلي الإهداء يعبر السارد فيها عن أهمية العرجون اليابس في المنطقة والدلالة التي يحملها هذا العرجون فرغم الصعوبات والمآسي التي مرت بأهالي القصر إلا أنهم بقوا متماسكين يقول السارد :"كم لك في حضرتك، وزيوانك، نفع يا عرجون، معظم الأشياء لها في خضرتها حظوة وسلوان، ولها في يبسها نكر وهجران ، إلا أنت يا عرجون، وزيوانك، وأمكما النخلة"[13]

لم يكتف الروائي الزيواني بعتبة واحدة إنما جسد السخاء الصحراوي المتوارث في المجتمع إلى سخاء لغوي وافتتاحي حين أفرد للنخلة وعناصرها، وهي رمز الكرم والحياة في توات، عتبة تختزل مكانتها في الرواية والفضاء الذي يتشكل منه النص.

ومن أنماط المتخيل في الرواية، العنوان، لأن الصحراء لم تكن أبدا مملكة لنظامها الرعوي وطابع الترحال الذي يسمها نظرا لطبيعتها الجافة والقاسية، هي قبائل متفرقة استوطنت الواحات قصورها من الطين، تختلف عن قصور الشمال، أما الزيوان فهو العرجون اليابس يستعمل للتنظيف والتحويل الصناعي، ويشير إلى الفناء" إن العنوان هذا التشكيل اللفظي والإيحائي يقدم لنا هندسة النص السردي، أو على الأقل يوحي لنا بأننا سنملك في النص سبيل التحول من الحس إلى السيء، ومن القائم إلى المتهدم، ومن الذي كان إلى الذي يطرأ فتغير، غير أن التغير لن يكون استمرار الحياة، وإنما يكون مواتا وانتهاء، كما هو

---

[12] –عبد القادر ضيف الله :جمالية متخيل الفضاء الصحراوي في رواية مملكة الزيوان للروائي أحمد الصديق، مجلة سرديات الصحراء، أدرار، العدد 2019 ، ص202.

[13] – الرواية، ص33.

غصن الزيوان في روايته، ومن ثم يكون العنوان، هذه العتبة النصية أو الدركات التي سينزلها السرد إلى حقيقة القصر الأخيرة[14]."

يتوالى الحضور الصحراوي الباهر في العتبات الملفوظة التي استهل الزيواني بها نصه، التي اكتست أردية لغوية محلية تواشجت مع التراث والثقافة الشعبية المحلية والثقافة الشعبية المحلية.

2- الصحراء على مستوى الشخصيات:

اختار الروائي شخوص روايته من البيئة المحلية وعالمه القروي الذي قضى فيه طفولته والمجتمع التواتي الذي نشأ فيه ودائما ما تعتمد الشخصية على "وضوح معالمها وتمثل حركة سردها، وتسهم في الكشف عن البقعة الصحراوية النائية". وهذه الشخصيات تحيل إلى مجتمع البساطة والإيمان وشيوع ثقافة الدروشة والشعوذة، ومن بين هذه الشخصيات التي تحيل إلى عوالم الصحراء :الدرويش -لمرابط -الطالب إيقش - الغيواني -أمبارك ولد الداعلي-خرص المية -أميزار-نفوسة -مريمو -لالة باتي..

3-الصحراء على مستوى الأحداث:

عالم الصحراء ملئ بالغموض والأساطير، وتفاجئك فيه الغرائب والعجائب والأحداث التي تحير العقل البشري .ولقد استطاع الروائي أن يجسد فضاء الصحراء، ويتكئ على موروث المجتمع الطارقي بما فيه من أساطير وعوالم تؤطرها الطلاسم والربط والحروز وادعاء جلب الحظوظ ودفع العين والمخاطر عن النفس البشرية .وحفر بذلك لنفسه مكانة في النص الروائي العربي.

إن المكان بفضل حمولته وشحنه الأسطوري يولد علاقة بين المكان والإنسان تقوم على تشابك الكائنات المشكلة لذلك المكان "[15]، ويستحضر الإنسان تلك الأبعاد والأشباح بضغط الخالة الوجودية والنفسية الناتجة من أسطرة المكان.

---

[14]- حبيب مونسي :نص الصحراء في مملكة الزيوان للروائي الصديق حاج أحمد، مداخلات المنجز السردي للسعيد بوطاجين، الملتقى الوطني الثالث، ص 195.

في مملكة الزيوان يدهشك نص حفرة الرابطة " المعتدة عن وفاة زوجها" بما فيه من عوالم السحر والشعوذة ومخاطبة الآدميين للجن ومحاولة التوسل بهم لقضاء حوائجهم بوسائط الطلاسم والشعوذة .تمثل حفرة الرابطة فضاء أسطوريا عندما توفر أجواء الغرائبيات وعوالم الجن والإنس في حوار العشق والمرأة، أو عندما يلتقي الدرويش بشخصيات

أسطورية متداولة في المعتقدات الشعبية للمنطقة مثل مروشة الفاتنة الجمال، والشيخ شمهروس والروحانيات "الخادمات "وحوارات التسخير والتوظيف لتحقيق المآرب، يعطي ذلك للمكان بعده الأسطوري " كان سكان الحي في سالف عهدهم وحاضرهم أيضا، وفي واقعهم وخيالهم، يرون عن المكان روايات مرعبة...الزوبعة الرملية"[16] والتفريش في الرواية مخصص كله للحديث عن مكان يرشح أسطورة في شخوصه وجنه، وإنسه، ورمله السحري المزوبع، وفوقه وتحته ..وكل ما يحويه من عناصر مؤثثة على الرهبة وأجواء العجائبية.

خاتمة:

كان لتيمة الصحراء حضورا بارزا في الكتابة الروائية التي اتخذت من الصحراء موضوعا ومنطلقا لها، لاعتبارات فنية وتاريخية وإبداعية، على الأقل ستكون هذه نظرة النقد حسب توجيهاته وتوصياته وحسب مرافقته المتواضعة للمنجز السردي في الفضاء الصحراوي حتى الآن، ولكن الواقع – للأسف الشديد – يقول غير ذلك حيث ما تزال عالمية الكتابة "في الفضاء الصحراوي في بداياتها تحاول فرض نفسها مثل باقي الأشكال السردية الأخرى حتى تتمكن من الانطلاقة الفعلية والمساهمة بشكل جدي في خدمة ال

---

[15]–مملكة الزيوان، ص15

[16]– عبد اللطيف مخفوظ، وظيفة الوصف في الرواية، الجزائر :منشورات الاختلاف بالاشتراك مع الدار العربية للعلوم، ط1 ، 1430 هـ 2009 /م، ص80

رواية العربية وربط حاضرها بماضيها لتحقيق مزيد من التطور والتألق ،ويُحسب هنا – بالطبع –الفضل لبعض الكتاب الذين حاولوا أن يتخصصوا في الفضاء الصحراوي مثل إبراهيم الكوني وأحمد منيف، وأن ا لمصاف العالمية مما توافر ليكسبوا هذه التجربة السردية نوعا من التفرد والخصوصية وأن يرتقوا لديهم من عبقرية في الإبداع السردي.